تخريج نصوص أرسطالية

في كتاب الحيوان للجاحظ

للدكتور محمد طه الحاجرى

منذ عهد غير قريب كنت أخذت – استكمالا لدرس الجاحظ ، وتحقيقا لمصادر معرفته – أتقصى نقوله عن صاحب المنطق ، فى كتاب الحيوان خاصة ، وأحاول أن أتعرف مواضع هذه النقول فى كتب أرسطو ، وأوردها عنها ، كما جاءت فى ترجمة سانتيلير لها . وقد أتيح لى من ذلك قدر صالح ، منها ماجاء مصدرا بعبارة الجاحظ : « قال صاحب المنطق » ، ومنها ماجاء غفلا من ذلك ، لسقط أو اضطراب أو ما إليه . وأخذت فى وضع نص حيوان الجاحظ بإزاء نظيره فى كلام أرسطو ، متخذا ذلك أساسا للمقارنة بينهما . وقد أتاحت هذه المقارنة أشياء لها خطرها ، منها أنها صححت بعض الأخطاء التى وقعت فى النشرة المحققة التى أخرجها الأستاذ الجليل عبدالسلام هارون . وماكان النص الصحيح ليأخذ مكانه لولا هذه الوسيلة ، ومنها أنها رجحت بعض القراءات على بعض ، فوضعت القراءة المرجوحة مكان القراءة الراجحة . ومنها ، فوق ذلك ، أنها ألقت بعض الضوء على قراءات النص اليونانى واحتمالاته المختلفة ، كما أثبتها المترجم فى هوامش ترجمته ، ولعلها بذلك يمكن أن ترجح بعضها على بعض .

وكنت نشرت من هذه النصوص طائفة تبلغ الثلاثين ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة الأسكندرية[1] ، ثم صرفتنى بعض الصوارف عن نشر سائرها ، ثم توالت بعض الشواغل التى صرفتنى عنها ، حتى كدت أنساها ، إلى أن فرضت على طبيعة الحياة إلى التفت إلى الوراء أراجع

(١) المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ – ١٩٥٣) والمجلد الثامن (ديسمبر ١٩٥٤) .

ماضيّ ، فاذا هذه الدراسة بين يدى ، تدعونى اليها ، لتأخذَ فى الحياة العلمية مكانها .

وانى إذ أستأنف اليوم نشر هذه النصوص أتقدم بصادق الشكر لمجلة مجمع اللغة العربية أن أتاحت لى ولهاهذه الفرصة .

٣١ ـ قال الجاحظ : «قال : ويستبين خلق الفراخ إذا مضت لها ثلاثة أيام بلياليها ، وذلك فى شباب الدجاج ؛ وأما فى المسان منها فهو أكثر . وفى ذلك الوقت توجد الصفرة من الناحية العليا من البيضة ، عند الطرف المحدد ، وحيث يكون أول نقرها ، فثم يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم ، وهى تختلج وتتحرك . والفَرخ انما يخلق من البياض ، ويغتذَى الصفرة ، ويتم خلقه لعشرة أيام ، والرأس وحده يكون أكبر من سائر البدن »[١]

ويقع هذا النص من حيوان الجاحظ فى سياق القول فى الحمام . وقد أسند بعض القول فيه إلى من يطلق عليه إسم «صاحب الحمام» ، وإلى «مثنى بن زهير» . كما استطرد فيه من الحديث عن بيض الحمام إلى الحديث عن بيض الدجاج ، دون أن يرد ذكر «صاحب المنطق» فى شئ من ذلك ، مع أن المقارنة دلت على أن من الأقوال التى أوردها ماهو مأخوذ عن أرسطو ، كما نرى ذلك فى النصوص السبعة السابقة[٢] على هذا النص الذى تتصدره أيضا كلمة : «قال» مرسلة دون تعيين صاحب القول ، وهو صاحب المنطق ، الذى تقع هذه الجملة من كلامه فى أعقاب النص السابق ، فى أول الفصل الثالث من الكتاب السادس ، وفى أثنائه ، بعد مقدمة فى أن جميع الطير يتولد من البيض ، فى مدة تختلف باختلاف أنواعه . وذلك إذ يقول :

«وفى الدجاج يكفى ثلاثة أيام وثلاث ليال ليبدأ الفرخ فى الاستبانة ، فأما الطيور الكبرى فيلزمها أكثر من ذلك ، كما يلزم الصغرى أقل . وفى تلك الفترة تصعد الصفرة شيئا فشيئا إلى أعلى

(١) ٣ : ١٧٧ — ١٧٨

(٢) انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن ، ص ٨٢ — ٩٠

البيضة ، وهو طرفها المحدد ، حيث مبدأ البيضة ، وحيث تنكسر . وفى البياض يوجد شئ كنقطة من دم ، وهى القلب . وهذه النقطة تخفق وتضطرب ، لأنها حية »

وبعد أن يتكلم فى شئ من التفصيل عن خلق الفرخ ، يقول : «ويخرج الفرخ من البياض ، وغذاؤه من الصفرة من خلال السرة ، وفى عشرة أيام يتم خلق الفرخ ، ويتميز تماما بأعضائه التى يتكون منها جميعها ، ولايزال رأسه أكبر من سائر جسده[1] »

وبين النصين من الخلاف مايرجع إلى اختلاف الفهم ، كما فى عبارة النص الجاحظى : «وذلك فى شباب الدجاج ، وأما فى المسان منها فهو أكثر » ، وليس الأمر فى النص الآخر خاصا بالدجاج ، وإنما هو فى الطير عامة . كما أن من الخلاف مايرجع إلى النساخ وتصرفهم فى النص ، كما فى قوله : «فثم يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم » ، فهناك نسخة أخرى من الحيوان لم يرض الناشر قراءتها فى هذا الموضع فلم يأخذ بها ، تجعل الكلام فى هذه الجملة عن القلب : « والقلب يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم ، وبذلك تتفق تماما مع النص الآخر .

على أنه – إلى جانب ما فى النصين من خلاف – يوجد شئ من الاتفاق الدقيق فى بعض المواضع . فالتعبير عن النقطة الدموية بأنها تختلج وتتحرك يبدو لأول وهلة كأنه شئ من الفضول أن يورد الفعلان معا فى النص الجاحظى ، ومعناهما واحد . ولكنا نجد الأمر كذلك فى الترجمة الفرنسية : "Ce point bat et s'agite" » ، كما نجد مثل ذلك فى ترجمة دارسى ونتورث طومسون الانجليزية ويصرح سانتلير فى التعليق على هذا الموضع أن الكلمتين موجودتان فى النص اليونانى . فليس الأمر إذن فى مثل أمر شرح أو فضول أو تزيد فى التعبير ، وانما هو أمر دقة وتحر للحرفية .

٣٢ – قال الجاحظ : «وقال صاحب المنطق : وقد باضت فيما مضى دجاجة ثمانى عشرة بيضة ، لكل بيضة محتان ،

---

(١) v. II, p. 268-270

ثم سخنت وحضنت ، فخرج من كل بيضة فروجان ، ماخلا البيض الذى كان فاسدا فى الأصل . وقد يخرج من البيضة فروجان ، ويكون أحدهما أعظم جثة »[١]

ونظير هذا النص عند أرسطو يقع فى آخر الفصل الثالث من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . وذلك إذ يقول ، بعد أن ذكر أنه قد شوهد من الدجاج مالا يبيض إلا بيضا مزدوجا ، أى له محتان :

« وقد باضت دجاجة ثمانى عشرة بيضة ، وخرج من كل بيضة فروجان ، ماعدا بيض الذنب أو بيض البول les oeufs de queue ou d'urine أما الباقى فكان جميعه مخصبا . وإذا كان أحد الفرخين أكبر جثة جاء الآخر أصغر ، ويكون الفرخ الأخير مشوها »[٢]

ولعل أول مايلفت النظر فى هذا النص هو عبارة « بيض الذنب أو بيض البول » التى يقابلها فى النص الجاحظى الذى كان فاسدا فى الأصل » ، فالترجمة الفرنسية تبدو غامضة غير مفهومة ، ومن هنا لاتظهر لنا العلاقة بينها وبين الترجمة العربية .

على أن مما يجدر ذكره هنا ماجاء فى تعليقات سانتيلير ، مما قد يكون له دلالته ، أن هذا النص قد عانى فى غير موضع منه غموضا واضطرابا دعيا إلى إدخال بعض التصحيحات عليه ، كما فعل جسنر gessner . كما حملا سانتيلير على التردد فى ترجمة بعض الكلمات ، وهى : أحد الفرخين ، أو أحد الصفرتين .

ويتصل بالنص العربى هذه الفقرة ، كأنها تكملة له : « وكذلك الحمام . وما أقل مايغادر الحمام أن يكون أحد الفرخين ذكراً والآخر أنثى » ، ولانظير لها عند أرسطو ، فهل سقطت من كلامه ، أم هى من كلام الجاحظ وصلها بكلام أرسطو ؟

٣٣ ـ قال الجاحظ : « قال : وربما باضت الحمامة وأشباهها من الفواخت ثلاث بيضات ، فاما الاطرغلاّت والفواخت فانها تبيض بيضين ، وربما باضت ثلاث بيضات ، ولكن لايخرج منها أكثر من فرخين ، وربما كان واحدا فقط . قال : وبعض الطير لا يبيض الا بعد

(١) ٣ : ١٧٨

(٢) v. II, p. 276-277

مرور الحول عليه كملا. والحمامة فى إكثر أمرها يكون أحد فرخيها ذكرا والآخرأنثى ، وهى تبيض أولا البيضة التى فيها الذكر ، ثم تقيم يوما وليلة ، ثم تبيض الأخرى . وتمضى ما بين السبعة عشر يوما إلى العشرين ، على قدر اختلاف طباع الزمان والذى يعرض لها من العلل . والحمامة أبرّ بالبيض والحمام أبرّ بالفراخ[1] »

وهذا النص يقع ، منثورا ، فى الفصل الرابع من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان لأرسطو . ولا أدرى أكذلك كان بوصفه هذا فى الأصل الذى نقل الجاحظ عنه ، أم أن الجاحظ كان يتخير : يأخذ جملة من هنا وجملة من هنا ، أم أن مانقله أبو عثمان قدعرض له من البتر ماجعله على هذه الصورة ؟

ومهما يكن من أمر فها هو ذا ما يقابل هذا النص فى ذلك الموضع من كتاب أرسطو :

«وجميع الطير من جنس الحمام كالفواخت le ramier والاطرغلات la tourterelle تبيض عادة بيضتين ، وأكثر مايمكن أن تبيض الاطرغلات والفواخت ثلاث ... ولكنها لا تربى أكثر من فرخين ، بل لا تربى أكثر من فرخ واحد فى بعض الأحيان .... ومعظم الطير لا يبيض فى عامه الأول... والحمام يبيض عادة ذكرا وأنثى ، وتكون بيضة الذكر غالبا قبل الأخرى ، وبعد تستريح فترة يوم ، ثم تبيض الأخرى... وتبلغ البيضة التى بيضت أولا نضجها ثم تفقس فى عشرين يوما .... والأنثى أسوأ من الذكر خلقا أثناء تربيتها بصغارها[2] »

وبين النصين بعض الخلافات الطفيفة التى لانريد أن نقف عندها ، التماسا لتعليلها ، كتحديد مدة الحضن فى النص الارسططالى بعشرين ، وتفاوتها بين العشرين والسبعة عشر فى النص الجاحظى وكالخلاف فى التعبير عن موقف أنثى الحمام وذكرها من الفراخ ، فالأول يكتفى بالقول بان الانثى أسوأ خلقاً من الذكر أثناء تربيتها لصغارها ، فى حين يأخذ الآخر بمفهوم ذلك ، فيجعل الأمر

(١) ٣ : ١٧٨ - ١٧٩

(٢) v. II, p. 277-279

قسمة بين الذكر والأنثى ، فالذكر أبرّ بالفراخ ، والأنثى أبرّ بالبيض

٣٤ ـ قال الجاحظ : « قال : وأما جميع أجناس الطير مما يأكل اللحم ، فلم يظهر لنا أنه يبيض ويفرخ أكثر من مرة واحدة ، ماخلا الخطاف فانه يبيض مرتين[١] »

ويقع هذا النص عند أرسطو فى الفصل الخامس من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، حيث عقد الكلام عن العقاب. قال :

« والطيور الأخرى آكلة اللحم لاتبيض أكثر من مرة واحدة فى العام ، قدرما يمكن أن يرى . والخطاف l'hirondèlle وحده بين آكلة اللحم هو الذى يبيض بيضتين فى السنة[٢] »

والنصان يتفقان ، كما نرى ، اتفاقا تاما ، فليس لنا غير ذلك من تعليق عليهما .

٣٥ ـ قال الجاحظ : « وقالوا : وأما الفرخ الذى يخرجه العقاب ، فان المكلفة ، وهى طائر يقال لها كاسر العظام ، تقبله وتربيه . والعقاب تحضن ثلاثين يوما ، وكذلك كل طائر عظيم ، مثل الأوز وأشباه ذلك . فأما الوسط فهو يحضن عشرين يوما ، مثل الحدأة ، ومثل أصناف البزاة ، كالبواشق واليآيىء والحدأة تبيض بيضتين ، وربما باضت ثلاث بيضات ، وخرج منهن ثلاثة أفراخ . قالوا : وأما العقبان السود الالوان فانها تربى وتحضن . وجميع الطير المعقف المخالب تطرد فراخها من أعشاشها عند قوتها على الطيران ، وكذلك سائر الأصناف من الطير ، فانها تطرد الفراخ ثم لا تعرفها ، ماعدا الغداف ، فانها لاتزال لولدها قابلة ، ولحاله متفقدة[٣] »

وهذا النص أرسطالى خالص صريح ، وان صدر بكلمة : « وقالوا » فانما حقها أن تكون : « وقال صاحب المنطق ، كما يبدو من مقارنته بهذا النص من تاريخ الحيوان ، فى الفصل الخامس من الكتاب السادس . قال :

« والنسر (l'effraie) يقبل (resçoit) فرخ العقاب الذى

---

(١) ٣ : ١٧٩

(٢) v. II, p. 281

(٣) ٣ : ١٨٠ ـ ١٨١

الذى طرد ويغذوه . والعقاب يحضن ثلاثين يوما تقريبا ، وهذه هى مدة الحضانة عند الطيور العظام ، مثل الأوز والحبارى (l' outorde) ، وأما الطير المتوسطة الجثة فقلَّ أن تحضن غير عشرين يوما ، مثل الحدأة والبازى . والحدأة لاتبيض فى أغلب الأحوال غير بيضتين ، ومع ذلك ففى بعض الأحيان يبلغ صغارها ثلاثة ... والعقبان السود ، على العكس من ذلك ، تغذو صغارها باهتمام كبير . ومهما يكن من أمر ، فانه يمكن القول بأن جميع الطيور ذوات المخالب المعقوفة تطرد صغارها وتضربها منذ تصبح قادرة على الطيران . ونكرر القول بأن جميع الطير الأخرى شأنها ذلك تقريبا ، أو على الأقل لاتولى صغارها أدنى عناية بعد أن تغذوها بعض الوقت . ويجب أن نستثنى من ذلك الغداف الذى لايزال معينا بها زمنا ، وحين تطير يغذوها ويطير بجانبها[(١)]

وهكذا نرى أن النص العربى يساير النص الآخر مسايرة دقيقة ، الا فى أشياء لاوزن لها ، كوضعه عبارة « وما أشبه ذلك » موضع كلمة « الحبارى » ، وكالتمثيل لأصناف البزاة بالبواشق واليآيىء ، ولانظير لهما فى نص أرسطو الذى ترجمه سانتيليير . على أن احدى مخطوطات الحيوان قد أغفلتهما. فاذا نحن لم نقف عند حد النسخة التى اعتمدها ناشر الحيوان فى هذا الموضع ، واعتبرنا تلك النسخة الأخرى ، وهى مخطوطة كبريلى ، أمثل النسخ وأجدرها بالثقة ، فان الاتفاق بين النصين يكاد يكون تاما. وقد أشرنا فى موضع سابق إلى أن هذه المخطوطة وضعت فى هذا النص ، فى موضع كلمة « كاسر العظام » كلمة « فينا »، وهى بعينها الكلمة اليونانية Phéné المستعملة فى هذا الموضع[(٢)]

٣٦ـ قال الجاحظ : « (قال : وقالوا : فراخ البزاة سمينة طيبة جدا). وأما الأوزة فانها التى تحضن دون الذكر ، وأما الغربان فعلى الاناث الحضن ، والذكورة تأتى الاناث بالطعمة ، وأما الحجل ، فان الزوج منها يهيئان للبيض

(١) v. II, p. 283-284

(٢) انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السادس والسابع ، ص ٢٠ – ٢١ .

عشين وثيقين مقسومين عليهما ، فيحضن أحدهما الذكر ، والآخر الأنثى ؛ وكذلك هما فى التربية . وكل واحدمنهما يعيش خمسا وعشرين سنة . ولا تلقح الأنثى بالبيض ، ولا يلقح الذكر إلا بعد ثلاث سنين[١] »

وهذا النص – كما نرى – مضطرب فى مبدئه وفى آخره . وانما أوردناه بصورته هذه ليكون مقالا لماعاناه كتاب الحيوان من اضطراب وماداخله من خلط . فصدر هذا النص ناب فى موضعه ، منقطع الصلة بما قبله ومابعده . وظاهران عبارة : «وقالوا فراخ البزاة سمينة طيبةجدا » مقحمةفى غير موضعها ، وأكبر الظن انها كانت مما جرى به قلم أحد القراء على هامش إحدى النسخ ، عند الكلام على البزاة وحضنها ، فجاءَ بعد ذلك أحد النساخ فأدخلها فى هذا الموضع . وكذلك الأمر فى آخر هذا النص ، ففيه من الخلط مانستطيع أن نتبينه من المقارنة بينه وبين نظيره فى كلام أرسطو ، كما جاء فى الفصـــل الثامن من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . قال :

«واناث الأوز هى التى تحضن وحدها ... وإناث الغربان هى التى عليها وحدها أن تحضن ، فلاتدع أن تكون على البيض لحظة واحدة ، والذكورة تحمل اليها ماتطعمه ... والحجلان تكوّم بيضها كومتين ، فتقوم الأنثى على احداهما ، ويقوم الذكر على الأخرى . وبعض الفقس يربى كل منهما ماحضنه خاصة[٢] »

ثم يتحدث بعدذلك قليلا عن سفاد الحجل ، وبهذا ينتهى الفصل الخاص به ، ليبدأ فصل جديد عن الطاووس ، دون أن نرى أثرا لهذه الجملة التى جاءت فى آخر النص العربى ، «وكل منهما يعيش خمسا وعشرين سنة .. الخ » ولكنا سنجدها فى الفصل التالى ، عن الطاووس ، وقد اقتبس منه الجاحظ ، عقب كلامه عن الحجل مباشرة .

٣٧ – قال الحاجظ : «قال : وأما الطاووس فأول ماتبيض فانها تبيض ثمانى بيضات ، وتبيض أيضا بيض الريح . والطاووس يلقى ريشه فى زمن الخريف ، إذا بدأ أول ورق الشجر يسقط . وإذا

(١) ٣ : ١٨٢ – ١٨٣

(٢) v. II. p. 287-288

بدأ الشجر يكتسى ورقا ، بدأ الطاووس فاكتسى ريشا [١] »

ويقع هذا القول – كما قلنا فى الفقرة السابقة – فى الفصل التالى ، وهو الفصل التاسع من الكتاب السادس . ويبدأ هذا الفصل بالكلام عن مدة حياة الطاووس ، فيقول : « الطاووس يعيش إلى خمس وعشرين سنة تقريبا ، ويلقح ، عامة ، فى الثالثة من عمره » . ثم يقول :

« وأنثى الطاووس التى تبيض للمرة الأولى قلما تبيض غير ثمان بيضات ، وتبيض أيضا بيضا رائقا (Oeufs-clairs)

. . . ويلقى الطاووس ريشه مع سقوط أول أوراق الشجر التى تسقط ، ثم يأخذ فى استرداد ريشه حين تسترد الأشجار أيضا خضرتها [٢] »

ومن هذا نرى أن العبارة التى جعلت فى آخر الكلام عن الحجل فى النص العربى ، إنما هى من جملة الكلام عن الطاووس ، أخطأت موضعها وزحلت عنه ، فأدمجت فيما قبلها ، ووهب عمر الطاووس ، وهو خمس وعشرون عاما للحجل ، وقد قال أرسطو فى موضع آخر أنه ستة عشر عاما أو فوقها [٣]

أما وضع كلمة بيض الريح فى النص الجاحظى للتعبير عن البيض الرائق ، فقد عرضنا له فى موضع له سابق [٤] .

٣٨ – قال الجاحظ : « قال : وماكان من الطير الثقيل الجثة فليس يهئ لبيضه عشا ، من أجل أنه لا يجيد الطيران ، ويثقل عليه النهوض ، ولا يتحلق مثل الدراج والقبج ، وإنما يبيض على التراب [٥] »

وهذا المعنى نجده عند أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب السادس من تاريخ الحيوان ، إذ يقول :

« والطيور تبيض بصفة عامة فى أعشاش ، ولكن التى لاتطير كثيرا لاتعمل أعشاشا ، مثل الحجل والقبج les perdrix et les cailles التى تبيض على الأرض ، وتغطى بيضها ببعض الأغصان [٦] »

(١) ٣ : ١٨٣ (٢) II, V. II, p. 289-290 (٣) V. II, p. 280
(٤) مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية . المجلد الثامن ص ٨٦ – ٨٧
(٥) ٣ : ١٨٤ (٦) V. II, p. 266

وبين النصين ، وإن كانا يتفقان فى المعنى العام ، شيئ من التفاوت ، ففى النص العربى إسهاب فى التعبير عن العجز عن الطيران ، بما هو شبيه بأسلوب الجاحظ . وفيه أيضا وضعت أيضا كلمة الدراج فى مقابل ماترجم قبل بالحجل perdrix

٣٩ـ قال الجاحظ : «قال : وإذا دنا الصياد من عش القبجة ، ولها فراخ ، مرت بين يديه مرا غير مفيت ، وأطمعته فى نفسها ليتبعها ، فتمر الفراخ فى رجوعها إلى موضع عشها . والفراخ ليس معها من الهداية مامع أمها . وعلى أن القبجة سيئة الدلالة والهداية ، وكذلك كل طائر يعجل له الكيس والكسوة ، ويعجل له الكسب فى صغره . وهذا إنما اعتراها لقرابة مابينها وبين الديك

قال : فاذا أمعن الصائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها ، طارت وقد نحته إلى حيث لا يهتدى الرجوع منه إلى موضع عشها . فإذا سقطت قريبا دعتها بأصوات لها ، حتى يجتمعن إليها .

قال : وإناث القبج تبيض خمس عشرة بيضة إلى ست عشرة بيضة .

قال : والقبج طير منكر ، وهى تفر ببيضها من الذكر ، لأن الأنثى تشتغل بالحضن عن طاعة الذكر فى طلب السفاد . والقبج الذكر يوصف بالقوة على السفاد ، كما يوصف الديك والحجل والعصفور قال : فإذا شغلت عنه بالحضن ، طلب مواضع بيضها حتى يفسده . فلذلك ترتاد الأنثى عشها فى مخانى ، إذا أحست بوقف البيض . وإذا قاتل بعض ذكورة القبج بعضا فالمغلوب منها مسفود ، والغالب سافد . وهذا العرض يعرض للديكة ولذكور الدراريج ، فإذا دخل بين الديكة ديك غريب ، فما أكثر ماتجتمع عليه حتى تسفده [١] »

ونستطيع أن نجدما يناظر هذا النص فى الفصل التاسع من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان ، فى الحديث عما ترجم أولا بالحجل ، ثم ترجم ثانيا ، كما رأينا فى النص السابق ، بالدراج ، وماترجم فى هذا النص بالقبج ، وهو مايسمى بالفرنسية ، كما يذكره سانتيلير ،

(١) ٣ : ١٨٤ - ١٨٦

perdrix . وأكبر الظن أن هذا النوع من الخلط يرجع إلى سوء صنيع النساخ ، إذ يبعد عندنا أن يقع من مترجم واحد قال :

« وإذا وقع الصـــائد على العش استدارت الحجلة la perdrix ، لتنجو بنفسها ، كما لو كانت ستدعه يمسكها ، ثم تطمعه فى إمساكها ، فتجتذبه إليها ، فتتيح لصغارها الوقت ليهربوا . وبعد هذا التدبير تطير وتدعو الصغار إليها . والحجلة لا تبيض أقل من عشر بيضات ، وأحيانا تبيض إلى ستة عشربيضة . والحجلة ، كما قيل طير خبيث ماكر.... وإذ كانت الذكورة شديدة الغلمة ، فإنها ، لكى تمنع الأنثى من الحضن ، تبعثر البيض وتكسره حيث تجده ، والأنثى تدافع قدر ما تستطيع عنه ، تخلص بنفسها لتبيض فى مكان آخر . وكثيرا مايحدث ، حين يعجلها البيض ، أن تضع بيضها حيثما اتفق ، بشرط أن يكون الذكر غير مطيق . ومن أجل أن تنقذه جملة واحدة ، فإنها لاتعود إليه... وإذا تقابلت الذكورة ، فالذكر المنهزم يتبع غالبه ، ولا يدع لغيره أن يسمه ، وإذا هزم الذكر وسمه الثانى ، أو أى واحد آخر فى خفية عن الغالب . . . ومثل هذا يحدث عند القبج les cailles ، كما يلاحظ هذا أحيانا عند الديكة . وفى المعابد التى تربى فيها الديكة بدون إناثها ، تتتابع جميعا على وسم القادم الجديد[1] .

وبين النصين – كما نرى – تفاوت واضح ، وإن اتفقا فى الجملة . فبينما نرى النص الجاحظى يتبسط أحيانا بالشرح والتنظير نراه يتجاوز عن بعض التفصيلات التى وردت فى النص الآخر ولا يعنينا الآن التماس مرجع هـــذا التجاوز . أما البسطة فى النص الجاحظى فربما كانت ترجع – فيما يخيل الينا – إلى أنه قد داخل كلام أرسطو بعض التعليقات التى أقحمها الجاحظ عليه ، وفصل بها بين أجزائه ، كقوله ، فى سياق ذلك النص ، فيما نحسب : «والفراخ ليس معها من الهداية مامع أمها ... » إلى قوله : «وهذا إنما اعتراها لقرابة مابينهما وبين الديك .

(٢) V. III, p. 166-168

كما نحسب أن شيئا من هذا التفاوت يرجع إلى غموض النص اليونانى فى بعض مواضعه . فوسم الذكر الغالب للذكر المغلوب أو حزه شئ يعترف سانتيلير بأنه غير مفهوم . ولكنه يقول أن النص لايعطى غير هذا المعنى ، والمخطوطات لاتقدم أى قراءة أخرى . أما المترجم العربى فقد فهمه على أن المراد به السفاد ، وجاء المعنى على هذا واضحا .

أما المعابد التى تربى فيها الديكة المقدسة ، فأكبر الظن أن المترجم العربى لم يكن ليستطيع إدراك المراد بها ، لذلك أغفل ذكرها ، وعبر عن المعنى بعبارة عامة .

٤٠ ــ قال الجاحظ : «زعم صاحب المنطق أن البزاة عشرة أجناس ؛ فمنها مايضرب الحمامة والحمامة جاثمة ، ومنها مالا يضرب الحمام إلا وهو يطير ، ومنها مالا يضرب الحمام فى حال طيرانه ، ولا فى حال جثومه ، ولا يعرض له إلا أن يجده فى بعض الأغصان ، أو على بعض الأنشاز والأشجار . فعدد أجناس صيدها . ثم ذكر أن الحمام لا يخفى عليه فى أول ما يرى البازى فى الهواء : أى البزاة هو ، وأى نوع صيده ، فيخالف ذلك . ولمعرفة الحمام بذلك من البازى أشكال : أول ذلك أن الحمام فى أول نهوضه يفصل بين النسر والعقاب ، وبين الرخمة والبازى ، وبين الغراب والصقر ، فهو يرى الكركى والطيرزين ولا يستوحش منهما ، ويرى الزرق فيتضاءل ، فان رأى الشاهين فقد رأى السم الذعاف الناقع »[1]

وهــذا النص الذى يبــدو أن الجاحظ أورد فيه كلام أرسطو بمعناه ، وعبر عنه بعبارته هو ، يقع فى الفصل الرابع والعشرين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان حيث يقول :

«يقال أنه يوجد عشرة أجناس من البزاة على الأقل ، تمثل الفروق الكبيرى بينها ، فبعضها ينقض على الحمام وهو على الأرض ، ويحتمله ، ولايمسه وهو يطير ؛ وبعضها يطارد الحمام وهو متشبث بشجرة أو أى شئ آخر ، ولكنه لايمسكه وهو على الأرض ، ولا حين يكون متشبثا ؛ وبعضها لايهاجمه وهو على الأرض ولا حين يكون متشبثا ، بل لايحاول

(١) ٣ : ١٨٧

إمساكه الا وهو يطير . ويؤكدون أن الحمام تستطيع معرفة هـذه الأنواع المختلفة من البزاة ، حين يطير البازى نحوها ؛ فإذا كان من البزاة التى لاتصطاد الا فى الهواء ، فانها لا تترك مكانها الذى هى فيه ، ولكن إذا كان البازى الذى ينقض فوقها من البزاة التى تضرب على الأرض ، فإنها لاتنتظره ، بل تسارع بالطيران[(١)] .

وظاهر أن الجاحظ لخص فى هذا النص شيئا وأشار إلى شئ . ولكن فيه زيادة لانجدها فى النص الآخر ، وذلك قوله : « ولمعرفة الحمام بذلك من البازى أشكال » إلى آخر النص ، فهل هى زيادة سقطت من النص الآخر ، إذ لم توجد فى المخطوطات التى ترجم عنها فى أوربا ؟ أم هى زيادة غير أرسطالية ، وقد أوردها الجاحظ عن مصدر آخر من مصادره الكثيرة لكتاب الحيوان ؟ ذلك ما لا يمكن القطع به الآن فيما يبدو .

٤١ ـ قال الجاحظ : « وقد قال صاحب المنطق : أقول بقول عام : لابد لجميع الحيوان من دم ، أو من شئ يشاكل الدم[(٢)] .

وقد كرر الجاحظ هذا النقل فى موضع آخر ، فقال : « وأما صاحب المنطق فإنه قال باضطرار أنه لايعيش حيوان إلا وفيه دم أو شئ يشاكل الدم[(٣)] »

وقد جاء هذا القول فى الفصل الثانى من الكتاب الثانى ، من أعضاء الحيوان إذ يقول :

« دعامة الحيوان منه ماله دم ، ومنه سائل يشبه الدم ، يحل محله »[(٤)] .

٤٢ ـ قال الجاحظ : « وقد قال صاحب المنطق وزعم فى كتاب الحيوان أن لكل طائر يعشش شكلا يتخذ عشه منه ، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع ، وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص . وزعم أن الهدهد من بينها يطلب الزبل ، حتى إذا وجده نقل منه ، كما تنقل الأرضة من التراب ، ويبنى منه بيتا كما تبنى الأرضة ، ويضع جزءا على جزء ، فاذا طال مكثه فى ذلك البيت ،

(١) V.III, p. 212-213   (٢) ٣ : ٣٦٩   (٣) ٦ : ١٢٩

(٤) Traité des parties des animaux . . . V. I, p 83

وفيه أيضا ولد ، أو فى مثله ، وتربى ريشه وبدنه بتلك الرائحة ، فأخلق به أيضا أن يورث ابنه النتن الذى علقه ، كما أورث جده أباه ، و كما أورثه أبوه . قال : ولذلك يكون منتنا[(١)] »

ولم نجد نظير هذا النص ، بهذه الصورة فيما بين يدينا من حيوان أرسطو ، ولم نجد هذه المعانى ، بهذا الوضع ، لديه . وإن يكن أرسطو تكلم عن الأعشاش فى غير موضع ، وعن اختلافها باختلاف أصحابها ، كما تكلم عن الهدهد وعشه خاصة ، وذكر أصل القول هنا فيه ، أما ماعدا ذلك من تفصيلات وصور فلم يقع لنا منها شئ فيما أتيح لنا ، فإما أن يكون ذلك قد كان فى حيوان أرسطو الذى نقلت نسخته إلى العربية ، ثم سقط وضاع ، وإما أن يكون شيئا أقحم عليه ، أقحمه المترجم ، أو أقحمه الجاحظ نفسه . وكل ذلك جائز محتمل فيما نحن فيه .

وهذا هو نص كلام أرسطو عن عش الهدهد ، كما جاء فى الفصل السادس عشر من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان :

« والهدهد يصنع عشه كله تقريبا من زبل الإنسان[(٢)] »

٤٣ ـ قال الجاحظ : « وذكر صاحب المنطق أن الطير الكبير ، الذى يسمى باليونانيـة : أغتيولس ، يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديرا مداخلا كأنه كرة معمولة . وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدار صينى من موضعه ، فيفرش به عشه ؛ ولايعشش إلا فى أعالى الشجر المرتفعة المواضع . قال : وربما عمد الناس إلى سهام يشدون عليها رصاصا ، ثم يرمون بها أعشتها ، فيسقط عليهم الدارصينى ،فيلتقطونه ويأخذونه[(٣)] »

ويقع نظير هذا النص فى آخر الفصل الرابع عشر من كتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول أرسطو :

« ويؤكد أهل البلاد أن الطائر المسمى سيناموم le cinnamome يجلب أيضا من حيث لا يعـرف أحـد المـادة المسماة

(١) ٣ : ٥١٣ – ٥١٤

(٣) ٣ : ٥١٥

(٢) V. III, p. 185

بهذا الاسم ، ويصنع منها عشه ، وهو يجعله فوق الأشجار وفى أعلا الأغصان . والأهالى يسقطون هذا العش بضربه بالسهام المشدود إليها الرصاص ،فيجمعون ماجلبه هذا الطائر من الدار صينى »[1] .

وبين النصين – كما نرى – بعض الفروق ، وإن كان أصل المعنى واحدا ، وجملة الصورة متفقة فيهما .

ولعل أول مايلفت النظر ويثير التساؤل من وجوه الخلاف هو الخلاف فى اسم ذلك الطائر ، إذ يجعله النص الجاحظى «أغتيولس» ، ويجعله النص الآخر «سيناموم» . فهل يرجع هذا الخلاف إلى أن الاسم ، كما جاء فى النص الأول ، تعرض للتحريف الذى حوله من «سيناموم» إلى «اغتيولس» ؟ ذلك فرض بعيد ، إذ لا تكاد الكلمتان تلتقيان بوجه من الوجوه فى الصورة الخطية ، إلا أن تكون الكلمة الأُولى قد مرت فى مراحل مختلفة من التحريفات والتصحيفات انتهت بها إلى أن فقدت كل صلة بصورتها الأُولى .

أم أن الاسم الذى جاء به النص الجاحظى أو مايشبهه ضاع أو انبهم فى الأُصول اليونانية المخطوطة التى كانت مادة الترجمة الأُوربية ، وبذلك أُطلق على الطائر اسم النبات الذى يصنع منه عشه ؟

أم أنه – قبل الاسترسال فى الفروض – لابد من الرجوع إلى الأُصول اليونانية ، فلعلها تحتفظ بهذا الاسم أو مايشبهه ؟

ولعل من تمام القول فى هذا النص أن نذكر ماعلق به الحاحظ عليه ، وذلك إذ يقول :

«ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدار صينى ، وإن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائرا ينهض من وكره فى الجبال ، أو بفارس ، أو باليمن ، فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصينى ، وهو لم يجاور موضعه ولا قرب منه . وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأَوابد أو من القواطع ، وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأَملس ، وبطون الأَودية ، وأهضام الجبال ،

---

(١) V. III, p. 182

بالتدويم فى الأجواء، وبالمضى على السمت، لطلب مالم يره ولم يشمه ولم يذقه . وأخرى فإنه لايجلب منه بمنقاره ورجليه مايصير فراشا له ومهادا ، إلا بالاختلاف الطويل . وبعد فإنه ليس بالوطىء الوثير ، ولا هو له بطعام . فأنا وإن كنت لاأعرف العلة بعينها ، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة ، فأذكرهذا »[1] .

وقبل أن ندع هذا النص نقول إن الترجمة العربية التى وضعت كلمة « الدار صينى » بإزاء كلمة « cinnamome » قد فصلت فى حيرة سانتيلير حين قال فى تعليقه على هذه الكلمة : إنه لايدرى ، على وجه الدقة ، ماذا كان القدماء يعنون بها : أهو المر (myrhe) أم هى القرفة (Cannelle)

٤٤ ـ قال الجاحظ : « وقدزعم صاحب المنطق أن ذوات الأربع كلها تحيض ، على اختلاف فى القلة والكثرة ، والزمان ، والحمرة والصفرة ، والرقة والغلظ »[2] .

٤٥ ـ قال الجاحظ : « وقد زعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت فى السن كان أقوى لها على المعاظلة »[3] .

وقد سبق للجاحظ أن ذكر هذا المعنى ، حاكيا له عن أرسطو ، فى سياق فصل طويل خاص بالكلاب ، نقله عنه ، ونص عبارته هناك :

« ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص ، وهى أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد »[4] .

ونظيرها فى كلام أرسطو قوله : « وللكلاب اللقونية خاصية تمتاز بها ، وهى أنها كلما تعبت كانت أقوى على السفاد من التى لم تتعب » .

وقد لاحظنا أن فى عبارة أرسطو ـ كما أوردها الجاحظ ـ تحريفين : أولهما فى كلمة « السلوقية » ، فينبغى أن تكون محرفة عن « اللقونية » ، والآخر فى كلمة « بقيت » ، فينبغى أن تكون محرفة عن « تعبت »[5] .

---

(١) ٣ : ٥١٧ ـ ٥١٨

(٢) ٣ : ٥٢٩ ـ ٥٣٠

(٣) ٣ : ٥٣٣

(٤) ٢ : ٢٢٢

(٥) مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن ، ص ٧٧

وهنا نستطيع أن نقول إن هذا التحريف الأخير ليس تحريفا فى نسخ حيوان الجاحظ التى بلغتنا ، وإنما كان تحريفا فى نسخة حيوان أرسطو التى كانت بين يدى الجاحظ ينقل عنها ، بدليل أنه ، حين روى هنا بالمعنى ماكان أورده قبل نصا ، قال : « كلما دخلت فى السن » بدلا من قوله : « كلما بقيت » ومن ذلك كان تعليقه على كلام أرسطو بقوله :

« وهذا غريب جدا . وقد علمنا أن الغلام أحدّ مايكون وأشبق وأنكح وأحرص عند أول بلوغه ، ثم لايزال كذلك حتى يقطعه الكبر ، أو إصفاد ، أو تعرض له آفة » .

محمد طه الحاجرى

